قصص جحا

كامل كيلاني

سارق الحمار

وقصص أخرى

Mastriani

نشر

الشركة التونسية للتوزيع

قصص جحا

كامل كيلاني

سَارِقُ الحِمَار

وقصص أخرى

نشر

الشركة التونسية للتوزيع

مُقَدِّمَة[1]

وَلَدِى « رَشادُ » :

وَعَدْتُكَ بِهٰذِهِ الْقِصَصِ الْجُحَوِيَّةِ الشَّائِقَةِ مُنْذ أعْوامٍ .

ظَلِلْتَ تَتَعَجَّلُنِى إِنْجازَها يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وشَهْرًا بَعْدَ شَهْرٍ ، وَعامًا بَعْدَ عام .

لَمْ أنْسَ الْوَعْدَ .

لَمْ أُقَصِّرْ فِى تَلْبِيَةِ رَغْبَتِكَ الْمُحَبَّبَةِ إِلَىَّ .

حالَتْ عَوائِقُ جَمَّةٌ دُونَ تَحْقِيقِ هٰذِهِ الْغايَةِ .

الْمَخْطُوطُ الْجُحَوِىُّ الْقَدِيمُ - الَّذِى أَظْفَرَنِى بِهِ حَظُّكَ السَّعِيدُ - لَمْ يَكُنْ كامِلًا .

كَانَ لِتَقادُمِ الزَّمَنِ عَلَيْهِ أَثَرٌ كَبِيرٌ : دَبَّ إِلَيْهِ الْبِلَى . أَضاعَ ما أَضاعَ مِنْ صَفَحاتِهِ ، وَمَحا ما شاءَ مِنْ سُطُورِهِ وَعِباراتِهِ ، وَطَمَسَ الْكَثِيرَ مِنْ فِقَراتِهِ وَكَلِماتِهِ .

لَمْ يَثْنِ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِى . لَمْ يَقِفْ حائِلًا دُونَ إِنْجازِ وَعْدِى . اِسْتَعَنْتُ بِالْمُثابَرَةِ والصَّبْرِ . لَمْ أَدَّخِرْ جُهْدًا فِى تَحْقِيقِ الْمَخْطُوطِ الْفَرِيدِ ، الَّذِى كَتَبَهُ « طارِقُ بْنُ بَهْلَلٍ » .

---

(١) نثبت مقدمة الطبعة الأولى ، كما أثبتناها فى الطبعات السابقة .

لَعَلَّكَ لَمْ تَنْسَ هٰذا الِاسْمَ !

إِنهُ ابْنُ أَخِي « جُحا » - كَما قُلتُ لَكَ - فِي مُقَدِّمَةِ « بِرْمِيلِ الْعَسَلِ » : تِلْكَ الْقِصَّةِ الشَّائِقَةِ الَّتِي ظَفِرَتْ بِإِعْجابِكَ ، وَنالَتْ مَوْفُورَ رِضاكَ .

بَقِيَ عَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّنِي تَوَخَّيْتُ الأَمانَةَ - جُهْدَ طاقَتِي - فِي نَقْلِ هٰذِهِ الْقِصَصِ الْجُحَوِيَّةِ وَتَمْحِيصِهِ .

لا أَكْتُمُ أَنَّنِي أَضَفْتُ إِلَيْها أَشْتاتًا مِنْ رَوائِعِ الْقِصَصِ الْمَنْسُوبِ إِلَى « أَبِي الْغُصْنِ جُحا » فِي مُخْتَلِفِ اللُّغاتِ مِنْ شَرْقِيَّةٍ وَغَرْبِيَّةٍ .

سَتَرَى فِي جَدِيدِ ما أَضَفْتُهُ مِنْها إِلَى الْمَخْطُوطِ الْجُحَوِيِّ عَزاءً عَمَّا أَضاعَ الزَّمَنُ مِنْ صَفَحاتِهِ ، وَعِوَضًا (بَدِيلًا) عَمَّا طَمَسَ الْبِلَى (مِمَّا غَيَّرَ الْقِدَمُ ، وَطُولُ الْعَهْدِ) مِنْ طُرَفِهِ وَحِكاياتِهِ .

عَلَى أَنَّ هٰذِهِ الإِضافاتِ لَمْ تَكُنْ - فِي أَغْلَبِ الأَمْرِ - إِلَّا صُوَرًا قَرِيبَةً أَوْ مُكَرَّرَةً مِنَ الصَّفَحاتِ الْمَفْقُودَةِ أَوِ الْمَطْمُوسَةِ ، تَناقَلَها طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤَلِّفِينَ فِي الشَّرْقِ ، وَتَرْجَمَها بَعْضُ كُتَّابِ الْغَرْبِ .

لا تَنْسَ أَنَّ إِعْجابَ الْقُدَماءِ بِطَرائِفِ « جُحا » حَفَزَهُمْ إِلَى نَقْلِ الْكَثِيرِ مِمَّا حَواهُ هٰذا الْمَخْطُوطُ النَّفِيسُ ، حِينَ كانَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ - فِيما سَلَفَ مِنَ الْعُهُودِ - كامِلًا غَيْرَ مَنْقُوصٍ ...

شاءَ اللهُ أَنْ يُكَلِّلَ جُهْدِي بِالنَّجاحِ .

حالفني التوفيق في إظهار ما طمس من سطور المخطوط الجحوي ، واستكمال ما نقص من أقاصيصه الشائقة .

تحقق الأمل البعيد . تم لي ما أريد . عادت الفقرات المفقودة إلى مكانها ، واطمأنت إلى أخدانها . تألفت من أشتاتها طاقة نضيرة من الزهر ، طيبة الشذا ، متفاوحة العطر ..

بقي في نفسي أمل ورجاء يراودانها بين حين وآخر .

أمل ورجاء يسعدني أن أتوجه بهما إليك .

أمل في أن تعثر - في قابل أيامك - على مخطوط جحوي أوفى وأكمل من المخطوط الذي عثرت أنا عليه .

ورجاء في أن تقتدي بي فيما صنعت ، فتقبل على تحقيق ذلك المخطوط وتمحيصه ، ومقابلة نصوصه بغيرها من النصوص الجحوية المختلفة ، والمبادرة بنشرها وإذاعتها على أبناء جيلك القادم ؛ متى كبرت سنك ، واكتملت ثقافتك .

وفقك الله إلى إسعاد أبناء جيلك ، وإدخال البهجة على نفوسهم ؛ فليس أبهج للنفس من جلب السعادة إلى الناس .

حقق الله البعيد من آمالك الرشيدة ، ورغباتك المحيدة .

وكل آت قريب ، ولكل مجتهد نصيب .

كامل كيلاني

(المحرم ١٣٦٢ هـ يناير سنة ١٩٤٤ م)

الْجَزّارُ والسّاحِرُ

١ — في زَمَنِ الطُّفُولَةِ

قالَ « أَبُو الْغُصْنِ : عَبْدُ اللهِ دُجَيْنُ بْنُ ثابِتٍ » الْمُلَقَّبُ بِـ « جُحا » :

كُنْتُ في زَمَنِ الطُّفُولَةِ الْباكِرِ ، حِينَ وَقَعَتْ حَوادِثُ هٰذِهِ الْقِصَّةِ لِلسَّيِّدِ : « أَبِي عَوْفٍ » .

كانَ « أَبُو عَوْفٍ » جَزّارًا أَمِينًا ، مَعْرُوفًا بَيْنَ النّاسِ بِالْوَرَعِ والتَّقْوَى ، مَوْصُوفًا بِالْبِرِّ والْإِحْسانِ .

كانَ مِنْ جِيرانِنا الْأَقْرَبِينَ .

لَمْ يَلْبَثْ أَنْ ذاعَ صِيتُهُ ، واسْتَفاضَتِ الْأَحادِيثُ الْحَسَنَةُ عَمّا يُسْدِيهِ إِلَى الْفُقَراءِ والْمُحْتاجِينَ مِنْ فُنُونِ الْبِرِّ ، سِرًّا وَعَلانِيَةً .

٢ — شَيْخٌ وَقُورٌ

ذا صَباحٍ :

وَفَدَ عَلَى « أَبِي عَوْفٍ » شَيْخٌ وَقُورٌ ، رائِعُ السَّمْتِ ، مَهِيبُ الطَّلْعَةِ .

كانَ وَجْهُ الشَّيْخِ يَتَأَلَّقُ بِشْرًا وَنُورًا .

كانَ الشَّيْبُ يَكْسُوهُ وَقارًا وَجَلالًا ، وَيَزِيدُهُ بَهاءً وَجَمالًا .

كانَ مَنْ يَراهُ - أَوَّلَ وَهْلَةٍ - لا يُخامِرُهُ الشَّكُّ فِى أَنَّهُ أَحَدُ الصَّفْوَةِ الْمُخْلَصِينَ ، مِنْ عِبادِ اللهِ الصّالِحِينَ .

كانَ يَسْتَأْنِى فِى مِشْيَتِهِ ، وَهُوَ يَقْتَرِب مِنْ دُكّانِ الْجَزّارِ .

٣ — الدِّينارُ الأَوَّلُ

فَرِحَ الْجَزّارُ حِينَ رَأَى الشَّيْخَ الْوَقُورَ يَدْنُو مِنْهُ ، وَيُحَيِّيهِ فِى أَدَبٍ وَحَياء .

اِسْتَبْشَرَ الْجَزّارُ خَيْرًا بِما رَأَى .

رَحَّبَ بِمَقْدَمِ الشَّيْخِ الْوَقُورِ . خَفَّ إِلَيْهِ أَقْبَلَ عَلَيْهِ .

رَدَّ تَحِيَّتَهُ فِى أَدَبٍ وَوَقارٍ ، وَإِجْلالٍ وَإِكْبارٍ .

بادَرَ إِلَى يَدِهِ يَلْثِمُها ، وَيَلْتَمِسُ مِنْهُ الدُّعاءَ الْمُسْتَجابَ .

سَأَلَهُ مُتَوَدِّدًا عَمّا يُرِيدُ .

* * *

اِبْتَهَجَ الشَّيْخُ بِما رَأَى مِنْ حَفاوَةٍ وَتَكْرِيمٍ ، وَإِجْلالٍ وَتَعْظِيمٍ .

هَمَسَ فِى أُذُنِ التّاجِرِ بِما اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ عَزْمُهُ مِنْ بَذْلٍ كَرِيمٍ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَتَعَهُّدٍ دائِمٍ لِلْمُعْوِزِينَ ؛ قِيامًا بِما فَرَضَهُ اللهُ مِنْ زَكاةٍ عَلَى الْقادِرِينَ ، وَأَداءً لِما أَوْجَبَهُ مِنْ حَقٍّ لِلْفُقَراء وَالْمَساكِينِ .

طَلَبَ مِنَ الْجَزّارِ أَنْ يُعِدَّ لَهُ - كُلَّ صَباحٍ - خَرُوفًا مَذْبُوحًا يَشْتَرِيهِ مِنْهُ بِدِينارٍ ؛ لِيُفَرِّقَ لَحْمَهُ عَلَى الْفُقَراءِ وَالْمَساكِينِ .

أَكْبَرَ الْجَزّارُ صَنِيعَ الْمُحْسِنِ الْعَظِيمِ .

أَعْطاهُ الشَّيْخُ دِينارًا لامِعًا مُشْرِقَ الْجِدَّةِ .

انْتَهَزَ الْجَزّارُ هٰذِهِ الْفُرْصَةَ لِلتَّبَرُّكِ بِدَنانِيرِ الشَّيْخِ الصّالِحِ .

عَزَمَ عَلَى أَنْ يَدَّخِرَ دَنانِيرَهُ الْجَدِيدَةَ اللّامِعَةَ ، فَلا يَمَسَّها قَبْلَ انْقِضاءِ الْعامِ .

قَرَّرَ أَنْ يَشْتَرِيَ مِنْها فِي أَوَّلِ الْعامِ الْجَدِيدِ - بِما يَدَّخِرُهُ - ما يَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنْ ماشِيَةٍ وَأَغْنامٍ .

كانَ يُسْقِطُ - كُلَّ صَباحٍ - ما يَأْخُذُهُ مِنَ الدَّنانِيرِ الْجَدِيدَةِ فِي دُرْجٍ مُقْفَلٍ ، مِنْ خِلالِ ثَقْبٍ صَغِيرٍ فِي أَعْلاهُ .

٤ — الدَّنانِيرُ الزّائِفَةُ

جَرَى كِلاهُما عَلَى عادَتِهِ : الشَّيْخُ يَشْتَرِي - كُلَّ يَوْمٍ - خَرُوفًا بِدِينارٍ .

الْجَزّارُ يُسْقِطُ دِينارَ الشَّيْخِ فِي دُرْجِهِ الْمُقْفَلِ .

مَرَّتِ الْأَيّامُ وَالْأَسابِيعُ وَالشُّهُورُ .



أَشْرَفَ الْعامُ عَلَى نِهايَتِهِ

فَتَحَ التَّاجِرُ دُرْجَ النُّقُودِ الْمُدَّخَرَةِ .

ما أَعْجَبَ ما رَأَى !

شَدَّ ما فَزَّعَهُ وَرَوَّعَهُ أَلَّا يَجِدَ فِي صُنْدُوقِهِ دِينارًا واحِدًا .

لَمْ يَكُنْ فِي الصُّنْدُوقِ إِلَّا أَوْرَاقٌ صُفْرٌ مُسْتَدِيرَةٌ - بِعَدَدِ أَيَّامِ السَّنَةِ - مَكَانَ الدَّنَانِيرِ الصُّفْرِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي كَانَ يَأْخُذُها مِنَ الشَّيْخِ كُلَّ صَباحٍ .

٥ - افْتِضاحُ السِّرِّ

تَبَيَّنَ الْجَزَّارُ الْآنَ جَلِيَّةَ الْأَمْرِ . أَدْرَكَ حَقِيقَةَ الشَّيْخِ لَمْ يَعُدْ يُخامِرُهُ شَكٌّ فِي خِداعِ السَّاحِرِ الْأَفَّاكِ الْأَثِيمِ ، الَّذِي كانَ يَخْتَصُّهُ بِالْإِجْلالِ والتَّعْظِيمِ .

الْآنَ عَرَفَ أَنَّهُ لِصٌّ كَبِيرٌ ، مُدَلِّسٌ خَطِيرٌ ، خادِعٌ شِرِّيرٌ .

لَنْ يُفْلِتَ الْخادِعُ الْجارِمُ مِنَ الْعِقابِ . لا بُدَّ مِنَ الِانْتِقامِ .

الْجَزَّارُ يَتَرَقَّبُ قُدُومَهُ . الْجَزَّارُ يَتَرَبَّصُ بِهِ .

نارُ الْغَضَبِ تَلْتَهِبُ فِي صَدْرِهِ . مَرارَتُهُ تَكادُ تَنْشَقُّ مِنَ الْغَيْظِ .

ما بالُ الزَّمَنِ يُبْطِئُ فِي سَيْرِهِ ! ما بالُ الضَّجَرِ يَشْتَدُّ بِهِ !

ما بالُ الدَّقائِقِ تَمُرُّ كَأَنَّها - لِطُولِها - ساعاتٌ .

أَيْنَ الشَّيْخُ ؟ ما بالُهُ يَتَأَخَّرُ عَنْ مَوْعِدِهِ ؟

لِماذا أَخْلَفَ عادَتَهُ فِي الْحُضُورِ ؟



هَا هُوَ ذا الشَّيْخُ يَحْضُرُ فِي مَوْعِدِهِ !

لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ مَوْعِدِ كُلِّ يَوْمٍ .

خُيِّلَ إِلَيْهِ الضَّجَرُ أَنَّهُ تَأَخَّرَ .

الْآنَ يَرَاهُ .

هَيْهَاتَ أَنْ يُفْلِتَ مِنْ عِقَابِهِ !



أَسْرَعَ الْجَزَّارُ إِلَى غَرِيمِهِ صاخِبًا .

اِنْدَفَعَ إِلَيْهِ يَصُبُّ اللَّعَناتِ ، وَيُمْطِرُهُ سَيْلًا مِنَ الشَّتائِمِ والإِهاناتِ .

مُفاجَأَةٌ لَمْ يَتَوَقَّعْها السَّاحِرُ الأَفَّاكُ .

اِمْتُقِعَ وَجْهُ السَّاحِرِ ، بَعْدَ أَنْ وَضَحَ أَمْرُهُ ، وافْتَضَحَ سِرُّهُ .

٦ – عِنادُ التَّاجِرِ

اِقْتَرَبَ السَّاحِرُ مِنَ الْجَزَّارِ .

هَمَسَ فِي أُذُنِهِ مُسْتَعْطِفًا ، واسْتَغْفَرَهُ مِنْ ذَنْبِهِ مُتَلَطِّفًا

سَأَلَهُ أَنْ يُلَطِّفَ مِنْ حِدَّتِهِ ، وَيَتَجاوَزَ عَنْ زَلَّتِهِ .

ضَرَعَ إِلَيْهِ أَنْ يَكُفَّ عَنْ إِهانَتِهِ .

أَصَمَّ الْجَزَّارُ أُذُنَيْهِ عَنْ كُلِّ رَجاءٍ

أَعادَ الشَّيْخُ رَجاءَهُ أَنْ يَخْفِضَ مِنْ صَوْتِهِ ؛ حَتَّى لَا يُسِيءَ إِلَى سُمْعَتِهِ . وَعَدَ الْجَزَّارَ بِمُكافَأَةٍ جَزِيلَةٍ . ظَلَّ يُمَنِّيهِ الْأَمانِيَّ عَلَى غَيْرِ طائِلٍ .

تَضاعَفَ سُخْطُ الْجَزَّارِ . أَصَرَّ عَلَى الِانْتِقامِ . زادَتْهُ ضَراعَةُ الْمُجْرِمِ تَمادِيًا فِي صِياحِهِ وَتَشْهِيرِهِ ، وَإِمْعانًا فِي وَعِيدِهِ وَنَكِيرِهِ .

٧ – إِنْذارُ السَّاحِرِ

أَقْبَلَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ . عَبَثًا حاوَلُوا أَنْ يُهَدِّئُوا مِنْ ثَوْرَةِ الْجَزَّارِ . ضاعَتْ جُهُودُهُمْ سُدًى .

ظَلَّ الْجَزَّارُ مُمْسِكًا بِتَلابِيبِ غَرِيمِهِ .

اِنْطَلَقَ فِي هِياجِهِ ، مُتَمادِيًا فِي لَجاجِهِ .

يَئِسَ الشَّيْخُ مِنْ صَفْحِ الْجَزَّارِ .

نَفِدَ صَبْرُهُ بَعْدَ أَنْ أَيْقَنَ بِالْفَضِيحَةِ .

لَمْ يُفْلِحِ التَّوَسُّلُ وَلا الشَّفاعَةُ . لَمْ يُجْدِ النَّدَمُ وَلا الضَّراعَةُ .

ماذا يَصْنَعُ الْخَبِيثُ بَعْدَ أَنْ صَرَّحَ الشَّرُّ ، وَكُشِفَ الْغِطاءُ وافْتَضَحَ السِّرُّ ، وَلَمْ يَبْقَ أَمامَهُ مَهْرَبٌ وَلا مَفَرٌّ .

ماذا بَعْدَ الْوَعْدِ إِلَّا الْوَعِيدُ . ماذا بَعْدَ التَّرْغِيبِ إِلَّا التَّهْدِيدُ ؟!

كَذٰلِكَ فَعَلَ السَّاحِرُ : ثارَتْ ثائِرَتُهُ . عَلا صَخَبُهُ . تَنَصَّلَ مِنْ جَرِيرَتِهِ . أَمْعَنَ فِي صَفاقَتِهِ . قَذَفَ غَرِيمَهُ بِجَرِيمَتِهِ ، رَماهُ بِشُنْعَتِهِ . تَظاهَرَ بِالْغَضَبِ . لَجَأَ إِلَى الشَّكْوَى والِاتِّهامِ . دَوَّى صَوْتُهُ مُجَلْجِلًا كالرَّعْدِ . انْطَلَقَ يَقُولُ :

« تَبًّا لَكَ مِنْ غادِرٍ لَئِيمٍ ، نَزَّاعٍ لِلشَّرِّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ !

شَدَّ ما أَفْسَدَكَ حِلْمِي وَأَعْماكَ ! وَأَضَلَّكَ صَفْحِي وَأَغْواكَ !

طالَ صَبْرِي عَلَيْكَ ؛ فَلَمْ تَزِدْ إِلَّا تَمادِيًا فِي غُرُورِكَ واسْتِهْتارًا ، وَإِمْعانًا فِي خِداعِكَ وَإِصْرارًا . »

* * *

هٰكَذا انْطَلَقَ الْخادِعُ الْخَبِيثُ يَسُبُّ « أَبا عَوْفٍ » وَيُجَرِّحُهُ فِي غَيْرِ حَياءٍ ، وَيَرْمِيهِ وَيُقَبِّحُهُ بِما هُوَ مِنْهُ بَراءٌ .

خَتَمَ السَّاحِرُ سِبابَهُ قائِلاً : « أَلا فَلْتَعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ آخِرًا ، وَأَنَّ لِلْحِلْمِ حَدًّا لا سَبِيلَ إِلَى تَجاوُزِهِ .

هأَنذا أُنْذِرُكَ عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْحاضِرِينَ : أَنْ تَهْدَأَ مِنْ ثَوْرَتِكَ ، وَتُخَفِّفَ مِنْ حِدَّتِكَ ، وَتَكُفَّ عَنْ حَماقَتِكَ .

فَإِذا خالَفْتَنِي وَأَبَيْتَ نُصْحِي ؛ فَضَحْتُ سِرَّكَ ، وَكَشَفْتُ سِتْرَكَ . »

هالَ الْجَزَّارَ ما سَمِعَ . رَوَّعَتْهُ صَفاقَةُ الْأَفَّاكِ .

صَرَخَ فِي دَهْشَةٍ وَحَيْرَةٍ :

« أَأَنْتَ تَكْشِفُ سِرِّي ؟ أَأَنْتَ تَفْضَحُ أَمْرِي ؟

ماذا يَسْتَطِيعُ أَفَّاكٌ مِثْلُكَ أَنْ يَزْعُمَ ؟ »

أَجابَهُ السَّاحِرُ : « سَتَنْدَمُ عَلَى ثَرْثَرَتِكَ ؛ مَتَى أَظْهَرْتُ لِلْحاضِرِينَ ما خَفِيَ مِنْ أَمْرِكَ ، وَأَطْلَعْتُهُمْ عَلَى ما بَطَنَ مِنْ سِرِّكَ . »

تَضاعَفَ غَيْظُ الْجَزَّارِ . قالَ فِي غَضَبٍ واسْتِنْكارٍ :

« ما رَأَيْتُ - كَالْيَوْمِ - جارِمًا مُسِيئًا ، يُهَدِّدُ طاهِرًا بَرِيئًا ! »

قالَ السَّاحِرُ :

« لَمْ يَبْقَ لَكَ عُذْرٌ بَعْدَ هٰذا الْإِنْذارِ ، فَقَدْ أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ ! »

(يَعْنِي : أَنَّ عُذْرَهُ أَصْبَحَ واضِحًا ، بَعْدَ أَنْ حَذَّرَ غَرِيمَهُ سُوءَ الْعاقِبَةِ ، وَخَوَّفَهُ مَغَبَّتَها) .

٨ - لَحْمٌ آدَمِيٌّ

الْتَفَتَ الْجَزَّارُ إِلَى السَّاحِرِ .

قالَ لَهُ فِي لَهْجَةِ الْمُتَهَكِّمِ السَّاخِرِ :

« ما أَشْوَقَنِي إِلَى سَماعِ اتِّهامِكَ ! »

جَمَعَ السَّاحِرُ فُنُونَ مَكْرِهِ وَغَدْرِهِ .

قالَ مُتَوَعِّدًا : « لَنْ أَرْحَمَكَ بَعْدَ الْآنَ .

لَنْ أُفْلِتَكَ مِنَ الْعِقابِ ، عَلَى أَيِّ حالٍ .

آنَ لِي أَنْ أُطْلِعَ النَّاسَ عَلَى حَقِيقَتِكَ ، وَأُعْلِنَ لَهُمْ خافِيَةَ أَمْرِكَ .

آنَ لِي أَنْ أُنَبِّهَهُمْ إِلَى ما تُلْحِقُهُ بِهِمْ مِنْ فُنُونِ أَذِيَّتِكَ وَشَرِّكَ . »

ثُمَّ انْدَفَعَ يُسائِلُ الْجَزَّارَ ، فِي تَهَكُّمٍ واسْتِنْكارٍ :

« خَبِّرْنِي ، أَيُّها الطَّاهِرُ الْبَرِيءُ :

بِأَيِّ عُذْرٍ تَعْتَذِرُ ، وَبِأَيِّ جَوابٍ تُجِيبُ ، حِينَ يَطَّلِعُ الْحاضِرُونَ عَلَى ما تُخْفِيهِ مِنْ رُءُوسِ الْآدَمِيِّينَ الَّذِينَ تَذْبَحُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ ، وَتَبِيعُ النَّاسَ لَحْمَهُمْ ، بَعْدَ أَنْ تَضَعَ رُءُوسَهُمْ فِي هٰذا الصُّنْدُوقِ ! ؟

بِأَيِّ لِسانٍ تَرُدُّ عَلَى هٰذا الِاتِّهامِ ، أَيُّها الْبارِعُ الْهُمامُ ؟



أَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يَفْضَحَكَ وَيُخْزِيَكَ ، وَيَضَعَ حَدًّا لِجَرائِمِكَ وَيُعْمِيَكَ .

شاءَتْ حِكْمَةُ اللهِ وَرَحْمَتُهُ أَنْ تَنْسَى هٰذا الرَّأْسَ الآدَمِيَّ ، فَلا تُخْفِيَهُ فِي الصُّنْدُوقِ الَّذِي تَعَوَّدْتَ أَنْ تَخْبَأَ فِيهِ الرُّؤُوسَ الآدَمِيَّةَ كُلَّ يَوْمٍ !

أَلْقَى اللهُ عَلَيْكَ مِنْ ضُرُوبِ الْغَفْلَةِ ما أَذْهَلَكَ ؛ فَتَرَكْتَ الرَّأْسَ الآدَمِيَّ مُعَلَّقًا عَلَى بابِ الدُّكَّانِ ؛ لِيَبْقَى دَلِيلًا عَلَى جَرِيمَتِكَ ، وَشاهِدًا عَلَى وَحْشِيَّتِكَ ! »

أَيُّ فِرْيَةٍ نَطَقَ بِها السَّاحِرُ الْخَبِيثُ ؟

شَدَّ ما تَفَزَّعَ النَّاسُ !

كادَ الذُّهُولُ يَسْتَوْلِي عَلَيْهِمْ .

لَمْ يُصَدِّقُوا آذانَهُمْ فِيما سَمِعُوا .

ساوَرَهُمُ الشَّكُّ فِيما قالَ السَّاحِرُ .

أَرادُوا أَنْ يَتَبَيَّنُوا الْحَقِيقَةَ . اِقْتَحَمُوا دُكَّانَ الْجَزَّارِ .

شَهِدُوا صِدْقَ ما قالَهُ الْمُفْتَرِي الأَفَّاكُ .

حانَتْ مِنْهُمُ الْتِفاتَةٌ . رَأَوْا إِنْسانًا مُعَلَّقًا فِي دُكَّانِ الْجَزَّارِ لَمَّا يُفارِقْ رَأْسُهُ جَسَدَهُ .

واحَسْرَتاهُ !

يا لَهَوْلِ ما رَأَوْا !

خُيِّلَ إِلَيْهِمْ سِحْرُ الْخَبِيثِ أَنَّ اللَّحْمَ الْمُعَلَّقَ فِي دُكَّانِ الْجَزَّارِ لَيْسَ لَحْمَ خِرْفانٍ ، بَلْ لَحْمُ إِنْسانٍ !

٩ – هَرَبُ السَّاحِرِ

اِشْتَدَّتْ ثَوْرَةُ الْحاضِرينَ وَجَـزَعُهُمْ . تَضاعَفَ سُخْطُهُمْ وَفَزَعُهُمْ . هالَهُمْ ما رَأَوْا . جازَتْ عَلَيْهِمْ حيلَةُ السَّاحِرِ .

كادَتْ مَرائِرُهُمْ تَنْشَقُّ مِنَ الْغَيْظِ .

اِنْقَلَبَتْ نِقْمَتُهُمْ عَلَى السَّاحِرِ نِقْمَةً عَلَى الْجَزَّارِ .

أَوْسَعُوهُ سَبًّا وَشَتْمًا . اِنْهالُوا عَلَيْهِ ضَرْبًا وَرَكْلًا .

ظَلُّوا يَصْفَعُونَهُ بِأَكُفِّهِمْ ، وَيَرْكُلُونَهُ بِأَرْجُلِهِمْ حَتَّى أُغْمِيَ عَلَيْهِ .

فُرْصَةٌ سانِحَةٌ أَتاحَتْ لِلسَّاحِرِ الْمَكَّارِ ، سَبيلَهُ إِلَى الْفِرارِ .

أَفْلَحَ غَدْرُ السَّاحِرِ وَمَكيدَتُهُ ، وَنَجَحَتْ حيلَتُهُ .

١٠ – بَراءَةُ التَّاجِرِ

سُرْعانَ ما تَناقَلَ النَّاسُ قِصَّةَ « أَبي عَوْفٍ » .

حَضَرَ الْقاضِي عَلَى عَجَلٍ .

كانَ الْقاضِي ذَكِيًّا : كانَ يَعْرِفُ صِدْقَ « أَبي عَوْفٍ » وَلا يَرْتابُ فِي أَمانَتِهِ .

جاءَ بِنَفْسِهِ لِيَتَثَبَّتَ مِمَّا سَمِعَ .

نَظَرَ إِلَى اللَّحْمِ الْمُعَلَّقِ . لَمْ يَجِدْ إِلَّا لَحْمَ خِرْفانٍ ،

بَحَثَ عَنِ اللَّحْمِ الْآدَمِيِّ . لَمْ يَعْثُرْ لَهُ عَلَى أَثَرٍ . . .

اِنْكَشَفَ الْغِطاءُ . زالَ سِحْرُ السَّاحِرِ الْخَبِيثِ . عادَ كُلُّ شَيْءٍ إِلَى أَصْلِهِ .

الْآنَ تَتَجَلَّى الْحَقائِقُ سافِرَةً .

اِتَّجَهَ الْقاضِي إِلَى « أَبِي عَوْفٍ » . وَجَدَهُ لا يَزالُ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ .

بادَرَ بِإِسْعافِهِ لَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى أَفاقَ .

أَقْبَلَ عَلَيْهِ يُؤْنِسُهُ وَيُؤَسِّيهِ ، وَيُصَبِّرُهُ وَيُسَلِّيهِ .

سَأَلَهُ عَنْ قِصَّتِهِ ، وَكَيْفَ انْتَهَى إِلَى مِحْنَتِهِ .

أَفْضَى إِلَيْهِ « أَبُو عَوْفٍ » بِكُلِّ ما حَدَثَ .

* * *

الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ، وَتَبَيَّنَ الصِّدْقُ .

لَمْ يَبْقَ شَكٌّ فِي بَراءَةِ « أَبِي عَوْفٍ » مِنْ فِرْيَةِ السَّاحِرِ .

تَجَلَّى لِلْعِيانِ إِفْكُ السَّاحِرِ ، وَبَراءَةُ الْجَزَّارِ ، بَعْدَ فَواتِ الْأَوانِ : بَعْدَ أَنْ ثُلِمَ شَرَفُهُ ، وَلُوِّثَتْ سُمْعَتُهُ .

عَرَفَ النَّاسُ آخِرَ الْأَمْرِ حَقِيقَةَ السَّاحِرِ الْأَفَّاكِ .

أَدْرَكُوا أَنَّهُ ساحِرٌ أَثِيمٌ وَشَيْطانٌ رَجِيمٌ ؛ وَإِنْ دَلَّ مَظْهَرُهُ عَلَى أَنَّهُ مُحْسِنٌ رَحِيمٌ ، وَمَلَكٌ كَرِيمٌ !

عَوْدَةُ الحِمارِ

١ – بَعْدَ رُبْعِ قَرْنٍ

شَهِدتُ الْيَوْمَ جِنازَةَ « أَبِي عَوْفٍ » ، بَعْدَ أَنْ مَرَّ عَلَى هٰذا الْحادِثِ رُبْعُ قَرْنٍ .

تَدافَعَتِ الذِّكْرَياتُ . تَزاحَمَتِ الْعِبَرُ والْعِظاتُ .

لَمْ يَكُنْ لِلْمُشَيِّعِينَ حَدِيثٌ غَيْرُ قِصَّةِ « أَبِي عَوْفٍ » مَعَ السَّاحِرِ الأَفَّاكِ (الْمُبْطِلِ الْكَذَّابِ) .

ذَكَّرَتْهُمْ جِنازَةُ الطَّاهِرِ الْبَرِيءِ ، ما لَقِيَهُ مِنْ كَيْدِ الْآثِمِ الْمُسِيءِ .

أَمَّا أَنا : فَكانَ لِهٰذِهِ الْقِصَّةِ أَثَرٌ – فِي حَياتِي – بَعِيدُ الْغَوْرِ .

نُقِشَتْ حَوادِثُها فِي ذاكِرَتِي نَقْشًا .

تَعَلَّمْتُ مِنْها كَيْفَ يَفْتِكُ الْأَشْرارُ بِالْأَطْهارِ .

عَرَفْتُ – بَعْدَها – كَيْفَ أَتَحامَى الِاشْتِباكَ مَعَ الصُّفَقاءِ ؛ وَما أَكْثَرَ مَنْ لَقِيتُ مِنْهُمْ !

صانَتْنِي مِنَ الْوُقُوعِ فِي مِثْلِ الْوَرْطَةِ (الْهَلَكَةِ) الَّتِي تَرَدَّى فِيها « أَبُو عَوْفٍ » . ما كانَ أَبْلَغَ ما تَحْوِيهِ مِنْ دُرُوسٍ وَعِظاتٍ !

أَخَذت نفسِى - بَعْدَ هٰذا الحادِثِ - أَلَّا أَشْتَبِكَ مَعَ أَحَدٍ مِنَ الْأَشْرارِ ، فِي مُهاتَرَةٍ وَلَجاجٍ .

وَجَدْتُ فِي التَّغابِي مَهْرَبًا مِنَ الِاشْتِباكِ فِي صِراعٍ لا يَكادُ يَنْتَهِي بِخَيْرٍ .

٢ - تَغافُلُ الذَّكِيِّ

كانَ مِنْ آثارِ هٰذِهِ الْقِصَّةِ أَنِ اتَّهَمَنِي بَعْضُ الأَغْرارِ ، بِالْغَباءِ والْغَفْلَةِ .

لَمْ أُبالِ هٰذِهِ التُّهَمَةَ ، وَلَمْ أَجْزَعْ مِنْها ، عَلَى أَيِّ حالٍ .

آثَرْتُ (رَضِيتُ واخْتَرْتُ) أَنْ أُتَّهَمَ بِالْغَفْلَةِ ، عَلَى أَنْ أَزُجَّ بِنَفْسِي فِي مُحْرِجاتٍ لا أَدْرِي كَيْفَ أَخْرُجُ مِنْها .

لَمْ أَنْسَ الْحِكْمَةَ الَّتِي رَواها أَبِي عَنْ « مُعاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيانَ » .

حَدَّثَنِي أَبِي : أَنَّهُ شَهِدَ فِي صَدْرِ صِباهُ حِوارًا بَيْنَ « عَمْرِو ابْنِ الْعاصِ » وَ « مُعاوِيَةَ » .

كانَ حِوارًا عَجَبًا :

قالَ « ابْنُ الْعاصِ » يُفاخِرُ « مُعاوِيَةَ » بِلَباقَتِهِ وَسُرْعَةِ خاطِرِهِ :

« ما دَخَلْتُ مَأْزِقًا قَطُّ إِلَّا عَرَفْتُ كَيْفَ أَخْرُجُ مِنْهُ ! »

فَكَيْفَ كانَ جَوابُ « مُعاوِيَةَ » ؟ !

كانَ مِنْ أَبْرَعِ ما وَعاهُ التَّاريخُ مِنْ إجاباتٍ .

قالَ « مُعاوِيَةُ » : « أَمَّا أَنا : فَما دَخَلْتُ مَأْزِقًا قَطُّ ! »

* * *

لَمْ أَنْسَ هٰذِهِ الْحِكْمَةَ النَّادِرَةَ ، كَما لَمْ أَنْسَ تِلْكَ الْمُشاجَرَةَ الْخاسِرَةَ .

كانَ يَحْلو لِي - بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ - أَنْ أُقابِلَ بَيْنَ حِلْمِ « مُعاوِيَةَ » وَتَسَرُّعِ « أَبِي عَوْفٍ » .

كانَ لَهُما - فِي نَفْسِي - أَبْلَغُ الْأَثَرِ .

شَدَّ ما أَفَدْتُ مِنْهُما ، وانْتَفَعْتُ بِهِما !

٣ — مُؤامَرَةُ اللِّصَّيْنِ

أَذْكُرُ - عَلَى سَبِيلِ الْمِثالِ - أَنِّي كُنْتُ أَمْشِي ، ذاتَ يَوْمٍ ، فِي الْفَلاةِ .

أَحْسَسْتُ وَقْعَ خُطُواتٍ تَقْتَرِبُ مِنِّي .

سَمِعْتُ هَمْسًا يَدُورُ بَيْنَ اثْنَيْنِ .. لَمْ أَلْتَفِتْ إِلَى الْوَراءِ . أَرْهَفْتُ أُذُنِي . أَدْرَكْتُ أَنَّ لِصَّيْنِ يَأْتَمِرانِ بِي لِيَسْرِقانِي .



خَشِيتُ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْهُما مَكْرُوهٌ .

ذَكَرْتُ قِصَّةَ « أَبِي عَوْفٍ » مَعَ السَّاحِرِ الأَفَّاكِ .

لَمْ يَكُنْ مَعِي شَيْءٌ يُسْرَقُ غَيْرُ الحِمارِ .

لَجَأْتُ إِلَى المُصانَعَةِ : تَجاهَلْتُ اللِّصَّيْنِ . أَغْفَلْتُ شَأْنَهُما .

تَصامَمْتُ (تَظاهَرْتُ بِالصَّمَمِ) عَنْ سَماعِ حِوارِهِما .

٤ – تَجاهُلُ الْعارِفِ



تَشاغَلْتُ عَنْهُما بِمُحادَثَةِ نَفْسي تارَةً ، وَبِالْغِناءِ تارَةً أُخْرى :
هَيَّأْتُ لَهُما الْفُرْصَةَ لِسَرِقَةِ الْحِمارِ .

بَعْدَ قَليلٍ : شَعَرْتُ أَنَّ أَحَدَ اللِّصَّيْنِ يَفُكُّ مِقْوَدَ حِماري .
عَرَفْتُ أَنَّهُ يَضَعُ مِقْوَدَ الْحِمارِ في عُنُقِهِ . شَعَرْتُ أَنَّهُ يُسَلِّمُ
الْحِمارَ إِلى صاحِبِهِ . **تَغافَلْتُ عَمّا قالا** . تَغاضَيْتُ عَمّا فَعَلا .

جَرَيْتُ فِي هٰـذِهِ الْمَرَّةِ - عَلَى مَأْلُوفِ عادَتِي - مُتَباِلهًا (مُتَظاهِرًا بِالْغَفْلَةِ والْبَلَهِ) .

واصَلْتُ السَّيْرَ حَتَّى خَرَجْتُ مِنَ الْفَلاةِ ، واقْـتَرَبْتُ مِنَ الْعُمْرانِ .

٥ — جَوابُ اللِّصِّ

شَعَرْتُ بِالطُّمَأْنِينَةِ ، حِينَ بَلَغْتُ الْمَدِينَةَ .

أَمِنْتُ بَطْشَ اللِّصِّ . اِلْتَفَتُّ إِلَى الْخَلْفِ .

أَبْصَرْتُ مِقْوَدَ الْحِمارِ فِي عُنُقِ اللِّصِّ الْخَبِيثِ .

شَهِدْتُ اللِّصَّ الْخَبِيثَ يَرْتَضِي لِنَفْسِهِ أَنْ يُصْبِحَ بَدِيلًا مِنْ حِمارِيَ الطَّيِّبِ الْقَلْبِ .

لَمْ أَشَأْ إِحْراجَ اللِّصِّ تَظاهَرْتُ بِالْحَيْرَةِ والدَّهَشِ . رَأَيْتُ أَنْ أُهَيِّئَ لَهُ سَبِيلَ الْخَلاصِ .

أَعْدَدْتُ لَهُ جَوابَ سُؤالِي .

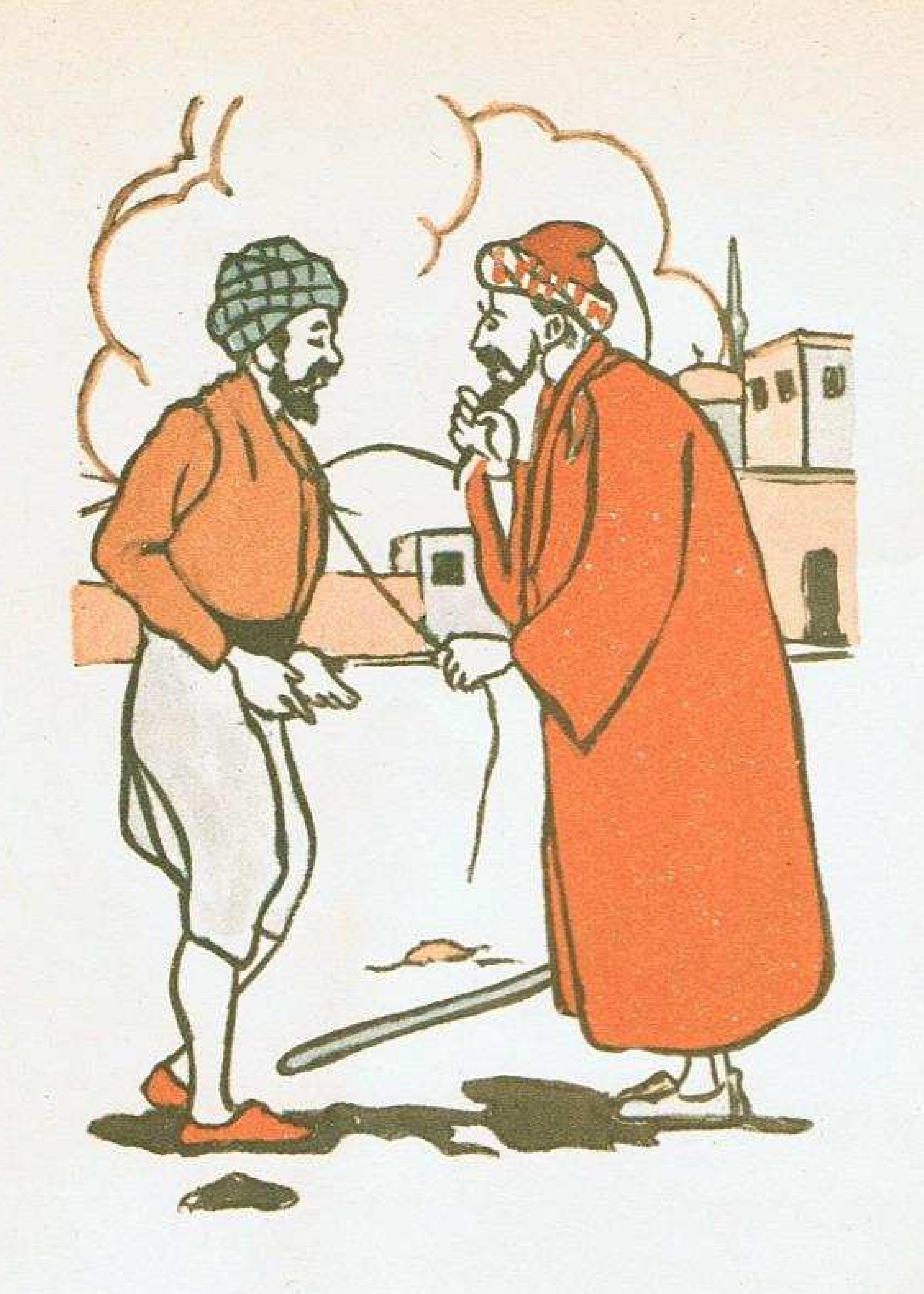
قُلْتُ لَهُ مُتَغابِيًا : « أَحِمارٌ مَـكانَ إِنْسانٍ ؟!

هٰذا أَعْجَبُ ما شَهِدَتْهُ عَيْنانِ !

تُرَى أَيْنَ ذَهَبَ حِمارِي ؟

بِرَبِّكَ إِلَّا ما خَبَّرْتَنِي كَيْفَ حَلَلْتَ مَـكانَهُ ؟ »

* * *



اِبْتَهَجَ اللِّصُّ بِمَا سَمِعَ . حَسِبَنِي - لِغَبَاوَتِهِ - غَبِيًّا .
أَجَابَنِي مُتَخَابِثًا :

« إِنَّ قِصَّتِي - أَيُّهَا السَّيِّدُ الْكَرِيمُ - غَايَةٌ فِي الْغَرَابَةِ .
قِصَّةٌ لا تَكَادُ تُصَدَّقُ ، لَوْلا أَنَّهَا حَقِيقَةٌ رَاهِنَةٌ .
أَكَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَخْطُرَ بِبَالِكَ أَنَّنِي آدَمِيٌّ مِثْلُكَ ؟ »

* * *

تَظاهَرْتُ بِالدَّهْشَةِ مِمَّا سَمِعْتُ . لَمْ أُظْهِرِ السُّخْرِيَةَ بِمــا افْـتَراهُ الِّصُّ . قُلْتُ مُتَبالِهًا :

« ما أَعْجَبَ ما أَسْمَعُ ! إِنَّها ـ كَما تَقُولُ ـ قِصَّةٌ لا تَخْطُرُ عَلَى بالِ إِنْسانٍ ! فَـكَيْفَ تَغَيَّرْتَ ؟

كَيْفَ انْقَلَبْتَ مِنَ الصُّورَةِ الْآدَمِيَّةِ إِلَى الصُّورَةِ الْحِمارِيَّةِ ؟ »

قالَ : « لِذٰلِكَ قِصَّةٌ عَجِيبَةٌ . »

قُلْتُ : « هاتِها ، فَما أَشْوَقَـنِي إِلَى سَماعِها ! »

* * *

قالَ : « فِيما مَضَى مِنْ عُمْرِي : أَسْرَفْتُ فِي الْإِساءَةِ إِلَى أُمِّي لَمْ أَكُفَّ يَوْمًا عَنْ إِغْضابِها . لَمْ أُبالِ غَيْظَها وَلا سُخْطَها آخِرَ الْأَمْرِ : نَفِدَ صَبْرُها ، وَقَسا عَلَيَّ قَلْبُها .

ابْتَهَلَتْ أُمِّي إِلَى اللهِ ـ داعِيَةً ـ أَنْ يَمْسَخَنِي حِمارًا .

اسْتَجابَ اللهُ دُعاءَها .

عِقابٌ لَمْ يَدُرْ بِخَلَدِي ! أَذْهَلَنِي وَحَيَّرَنِي !

ماذا أَصْنَعُ ؟ خَرَجْتُ هائِمًا فِي الطَّرِيقِ .

لَقِيَنِي بَعْضُ الْأَشْرارِ . خَطَفَنِي واحْتَجَزَنِي .

فِي الْيَوْمِ التَّالِي : ذَهَبَ بِي إِلَى السُّوقِ ، فَباعَنِي ...

كانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّى أَنِ اشْتَرَيْتَنى أَنْتَ مِنْهُ .

ظَلِلْتُ أَخْدُمُكَ - فِى أَمانَةٍ وَإِخْلاصٍ - إِلَى الْيَوْمِ .

لَعَلَّ ذٰلِكَ شَفَعَ لِى عِنْدَ اللهِ ، فَغَفَرَ لِى ما أَسْلَفْتُهُ لِأُمِّى مِنْ إِساءَةٍ وَعِصْيانٍ .

لَيْسَ أَدَلَّ عَلَى صِحَّةِ ما أَقُولُ مِنْ أَنَّ اللهَ قَبِلَ تَوْبَتِى ، فَرَدَّنِى إِلَى آدَمِيَّتِى . »

* * *

تَظاهَرْتُ بِتَصْدِيقِ ما رَواهُ الْكَيْذُبانُ مِنْ فنونِ الإِفْكِ والْبُهْتانِ .

قُلْتُ لَهُ مُتَغابِيًا (مُتَظاهِرًا بِالْغَباءِ) :

« قَلْبِى مَعَكَ . بِرَبِّكَ إِلَّا ما خَبَّرْتَنِى : كَيْفَ تَلَقَّيْتَ هٰذِهِ الْمُفاجَأَةَ السَّعِيدَةَ ؟ »

قالَ : « ظَلِلْتُ أُفَكِّرُ - طولَ هٰذا الطَّرِيقِ - فِيما حَدَثَ .

لَبِثْتُ مُطْرِقًا أَسْتَعِيدُ ما مَرَّ بى مِنْ عَجائِبِ الْحَياةِ .

لَمْ أَشُكَّ فِى أَنَّ أُمِّى عاوَدَها الْحَنِينُ إِلَى وَلَدِها .

أَيْقَنْتُ أَنَّها صَفَحَتْ عَنْ وَلَدِها الْعاقِّ ، وَعَمَدَتْ - آخِرَ الْأَمْرِ - إِلَى نِسْيانِ إِساءَتِى وَغُفْرانِ مَعْصِيَتِى ، داعِيَةً اللهَ - سُبْحانَهُ - أَنْ يُعِيدَنِى إِلَى آدَمِيَّتِى .

لا شَكَّ فِى أَنَّ اللهَ اسْتجابَ دُعاءها مَرَّةً أُخْرَى .

حَمْدًا لِلّٰهِ . شُكْرًا لِأُمِّى ! لَوْلا دَعَواتُها ، لَما خَلَعْتُ عَنِّى صُورَةَ الْحِمارِيَّةِ ، وَلَما اسْتَرْدَدْتُ صُورَةَ الْآدَمِيَّةِ ! »

٦ — نَصِيحَةُ « أَبِى الْغُصْنِ »

كُنْتُ أُصْغِى إِلَى حَدِيثِ هٰذا الْكَيْذُبانِ الْغَبِىِّ ، دُونَ أَنْ أُظْهِرَ ما أُخْفِيهِ لَهُ مِنْ زِرايَةٍ وَاحْتِقارٍ .

تَمَثَّلَتْ لِى - فِى الْحالِ - قِصَّةُ السَّاحِرِ وَالْجَزَّارِ .

قُلْتُ مُتَباَلِهًا :

« لَعَلَّكَ لا تَنْسَى هٰـذا الدَّرْسَ الْقاسِىَ ، فِى قابِلِ أَيَّامِكَ .

لَعَلَّكَ تَذْكُرُ هٰذا الْعِقابَ الْإِلٰهِىَّ طَوالَ حَياتِكَ .

آمُلُ أَنْ تُعاهِدَنِى - مُنْذُ الْيَوْمِ - عَلَى أَنْ تَتَحَرَّى مَرْضاةَ أُمِّكَ ، وَتَبْذُلَ فِى هٰذا السَّبِيلِ قُصارَى جُهْدِكَ ؟ »

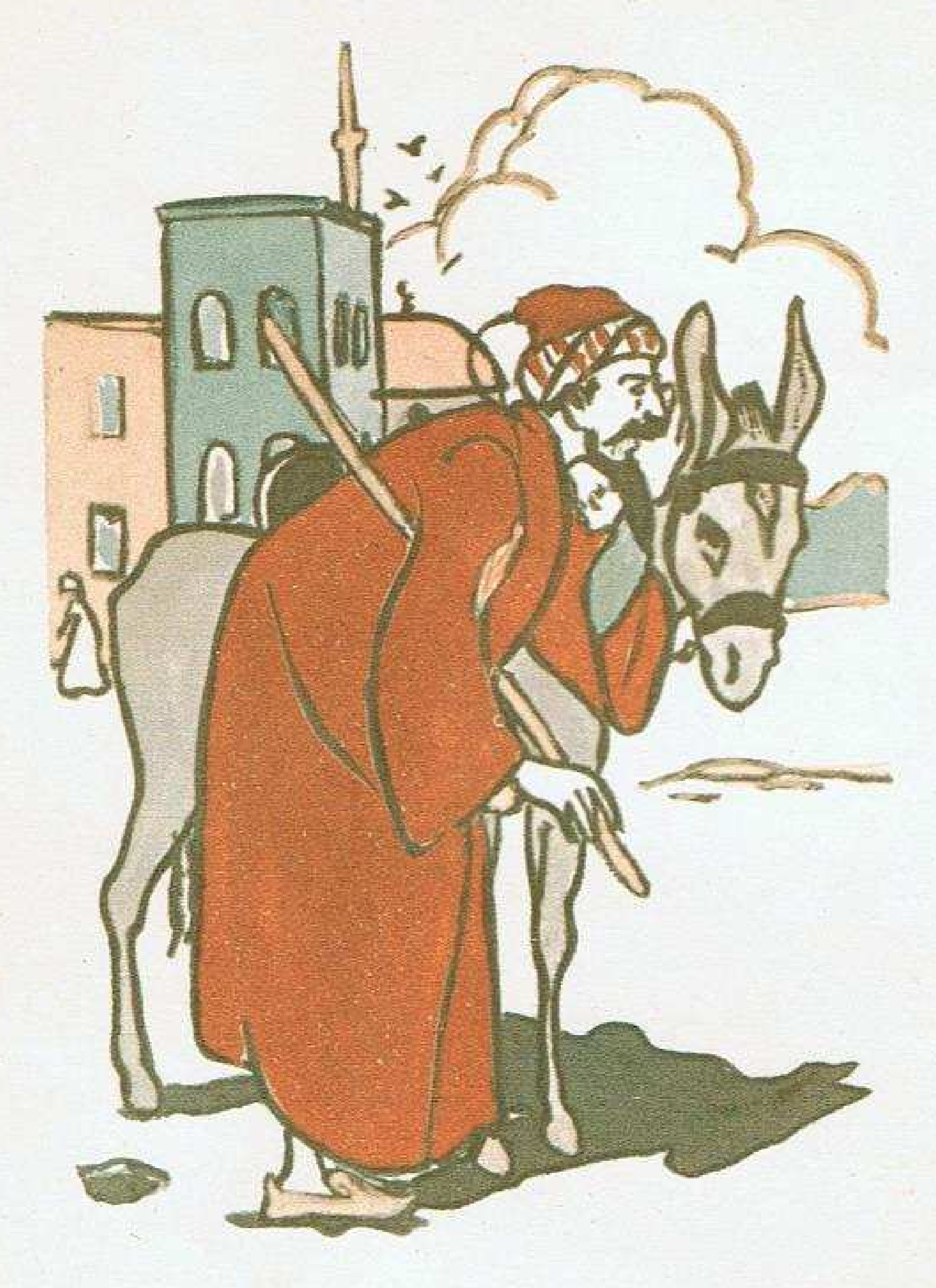
* * *

فَرِحَ اللِّصُّ بِما سَمِعَ .

عاهَدَنِى عَلَى تَحْقِيقِ رَجائِى .

فارَقَنِى وَهُوَ يَعْتَقِدُ فِى قَرارَةِ نَفْسِهِ أَنَّ « جُحا » كانَ - بِلا رَيْبٍ - أَكْبَرَ مُغَفَّلٍ لَقِيَهُ فِى حَياتِهِ .

٧ – فِى أُذُنِ الحِمارِ



ذَهَبْتُ إِلَى سُوقِ الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَيَّامٍ .

لَقِيتُ حِمارِى فَجْأَةً ! كانَ اللِّصَّانِ يَعْرِضانِهِ لِلْبَيْعِ .

رَآنِى اللِّصَّانِ قادِمًا عَلَيْهِما . اِسْتَخْفَى أَوَّلُهُما .

أَسْلَمَ الْحِمارَ إِلَى شَرِيكِهِ ، لِيُتِمَّ بَيْعَهُ .

اِقْتَرَبْتُ مِنَ الْحِمارِ . أَدْنَيْتُ فَمِى مِنْ إِحْدَى أُذُنَيْهِ .

تَظاهَرْتُ بِأَنَّنِي أَمُرُّ إِلَيْهِ حَدِيثًا مُوجَزًا .

لَمْ أَقِفْ عِنْدَ هٰذا الْحَدِّ فِي تَهَكُّمِي بِاللِّصَّيْنِ وَسُخْرِيَتِي . اِقْتَرَبْتُ مِنَ الْحِمارِ عَلَى مَشْهَدٍ مِنَ الْحاضِرِينَ . أَدْنَيْتُ فَمِي مِنْ أُذُنِهِ . تَظاهَرْتُ بِأَنَّنِي أُوَشْوِشُ الْحِمارَ . قُلْتُ لَهُ بِصَوْتٍ كانَ - عَلَى خُفُوتِهِ - بَيِّنَ الْجَرْسِ ، واضِحَ النَّبَراتِ :

« وَيْحَكَ ! أَلَمْ أُحَذِّرْكَ - يا صاحِ - هٰذِهِ الْعاقِبَةَ ؟

لِماذا رَجَعْتَ إِلَى إِغْضابِ أُمِّكَ ؟

ها أَنْتَ ذا تَرَى عاقِبَةَ عِنادِكَ .

أَنْتَ الْمَلُومُ عَلَى كُلِّ حالٍ . »

٨ — هَرَبُ اللِّصِّ

اِشْتَدَّتْ دَهْشَةُ النَّاسِ مِمَّا رَأَوْا .

أَقْبَلُوا عَلَيَّ يَتَعَجَّبُونَ : يَتَضاحَكُونَ وَيَتَغامَزُونَ .

سَأَلَنِي النَّاسُ مُتَعَجِّبِينَ :

« كَيْفَ تُوَشْوِشُ الْحِمارَ ، يا جُحا ؟ ! »

دَفَعَهُمُ الْفُضُولُ إِلَى سُؤالِي عَمَّا هَمَسْتُ بِهِ فِي أُذُنِ الْحِمارِ . قَصَصْتُ عَلَيْهِمْ قِصَّتِي ، بِمَرْأًى مِنَ اللِّصِّ وَمَسْمَعٍ .

تَوَجَّهْتُ إِلَيْهِمْ فِي خِتامِها قائِلًا :

« هأَنَذا أَجِدُ صاحِبِي يَنْتَقِلُ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ صُورَتِهِ الآدَمِيَّةِ إِلَى صُورَتِهِ الْحِمارِيَّةِ .

يا لَهُ مِنْ غَبِيٍّ ، تاعِسٍ شَقِيٍّ !

لا رَيْبَ أَنَّهُ أَغْضَبَ أُمَّهُ مَرَّاتٍ ، فَصَبَّتْ عَلَيْهِ اللَّعَناتِ .

لَوْ أَنَّهُ حافَظَ عَلَى وَعْدِهِ ، وَلَمْ يَتَنَكَّرْ لِعَهْدِهِ ، لَبَقِيَ مُحْتَفِظًا بِآدَمِيَّتِهِ ، مُتَمَتِّعًا بِإِنْسانِيَّتِهِ .

لٰكِنَّهُ أَبَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ حِمارًا ، فَكانَ لَهُ ما أَرادَ ! »

☆☆☆

اِسْتَغْرَبَ السَّامِعُونَ (أَغْرَقُوا فِي الضَّحِكِ) .

شَعَرَ اللِّصُّ بِالْحَرَجِ .

لَمْ يُطِقِ الْبَقاءَ بَعْدَ أَنْ ذاعَ سِرُّهُ ، وَافْتَضَحَ أَمْرُهُ .

تَسَلَّلَ هارِبًا . تَرَكَ لِي حِمارِيَ الْعَزِيزَ .

لَمْ أَتَعَرَّضْ لِشَيْءٍ مِمَّا تَعَرَّضَ لَهُ « أَبُو عَوْفٍ » .

رَجَعْتُ إِلَى دارِي ، مُبْتَهِجًا بِصُحْبَةِ حِمارِي !

قَضَيْتُ يَوْمِي راضِيًا مَجْبُورًا ، قَرِيرَ الْعَيْنِ مَسْرُورًا .

مَعَ الْأَشْرار

١ – مِقْوَدُ الْحِمارِ

ذاتَ يَوْمٍ : سَرَقَ بَعْضُ الْأَشْرارِ مِقْوَدَ حِمارِى .

عَبَثًا واصَلْتُ الْبَحْثَ عَنِ الْمِقْوَدِ .

قَطَعْتُ الْأَمَلَ مِنَ الْعُثُورِ عَلَيْهِ . أَيْقَنْتُ أَنَّهُ سُرِقَ .

☆ ✱ ☆

بَعْدَ أُسْبُوعٍ : كُنْتُ عائِدًا فِى طَرِيقِى إِلَى الْبَيْتِ .

شَهِدْتُ مِقْوَدَ حِمارِى فِى رَأْسِ حِمارٍ آخَرَ .

كانَ الْحِمارُ أَكْبَرَ مِنْ حِمارِى جِسْمًا .

كانَ السَّارِقُ أَكْبَرَ مِنِّى جِسْمًا ، وَأَشَدَّ بَأْسًا !

كانَ عِرْبِيدًا سِكِّيرًا . كانَ باطِشًا شِرِّيرًا .

لَمْ يَكَدْ يَرانِى ، حَتَّى تَمَلَّكَهُ الْغَضَبُ . تَوَقَّعْتُ مِنْهُ شَرًّا ، حِينَ رَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَىَّ شَزْرًا (بِمُؤْخِرِ عَيْنَيْهِ ، نَظْرَةَ الْغَضْبانِ) .

حَضَرَتْنِى قِصَّةُ « أَبِى عَوْفٍ » . جَرَيْتُ عَلَى مَأْلُوفِ عادَتِى : بادَرْتُهُ بِابْتِسامَتِى . شَفَعْتُها بِدُعابَتِى .

تَبالَهْتُ وَتَغابَيْتُ (تَظاهَرْتُ بِالْبَلَهِ وَالْغَباءِ) . وَقَفْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِى ، بِمَشْهَدٍ مِنَ اللِّصِّ وَمَسْمَعٍ .

رُحْتُ أَتَساءَلُ قائِلًا :

«ما أَعْجَبَ ما أَرَى ! كَيْفَ تَأَتَّى هٰذا التَّناقُضُ !

هٰذا رَأْسُ حِمارِي : رَأْسُ حِمارِي بِلا رَيْبٍ !

الْمِقْوَدُ عَلَى رَأْسِهِ ! هٰذا دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ ما أَقُولُ .

لَوْلا أَنَّنِي أَرَى مِقْوَدَ حِمارِي ، لَكانَ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ هٰذا رَأْسَ حِمارٍ آخَرَ .

لٰكِنِّي لا أَرَى بَقِيَّةَ الْحِمارِ ؟! تُرَى أَيْنَ ذَهَبَ ؟

هٰذا جِسْمُ حِمارٍ آخَرَ : حِمارٍ غَيْرِ حِمارِي !

دَلِيلِي عَلَى ذٰلِكَ : أَنَّ بَرْذَعَةَ حِمارِي لَيْسَتْ عَلَيْهِ .

عَلَيْهِ بَرْذَعَةٌ أُخْرَى . يا لَلْعَجَبِ الْعاجِبِ !

كَيْفَ يَبْقَى الرَّأْسُ وَيَتَغَيَّرُ الْجِسْمُ ؟ كَيْفَ اسْتَطاعَ رَأْسُ حِمارِي ، أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى جِسْمِ حِمارٍ آخَرَ ؟!»

كانَتْ مُفارَقَةً مُفاجِئَةً ، لَمْ يَتَوَقَّعْها الْخَبِيثُ . كادَ اللِّصُّ يَسْتَلْقِي عَلَى قَفاهُ مِنْ شِدَّةِ الضَّحِكِ . كانَ لِلدُّعابَةِ الْباسِمَةِ - فِي نَفْسِهِ - مِثْلُ السِّحْرِ . انْطَفَأَتْ نارُ حِقْدِهِ . أَصْبَحَتْ بَرْدًا وَسَلامًا . تَحَوَّلَ عُبُوسُهُ ابْتِسامًا . رَبَّتَ كَتِفِي مُتَوَدِّدًا حانِيًا ، وَأَعادَ إِلَيَّ الْمِقْوَدَ باسِمًا راضِيًا !

٢ - سارِقُ الْبَيْتِ

ذاتَ لَيْلَةٍ :

اسْتَيْقَظْتُ قُبَيْلَ الْفَجْرِ عَلَى صَوْتِ لِصٍّ تَسَلَّلَ إِلَى بَيْتِي :

لَمْ أُفَكِّرْ فِي إِزْعاجِ اللِّصِّ .

صَبَرْتُ عَلَيْهِ . جَمَعَ ما فِي الْبَيْتِ مِنْ ثِيابٍ

رَأَيْتُهُ يَضَعُ ما سَرَقَ فِي مُلاءَةٍ كَبِيرَةٍ .

شاهَدْتُهُ يَحْمِلُهُ عَلَى ظَهْرِهِ ، ثُمَّ يَخْرُجُ .

* * *

تَسَلَّلْتُ فِي أَثَرِ اللِّصِّ مُقْتَفِيًا خُطُواتِهِ .

كانَتْ لَيْلَةً مِنْ لَيالِي الشِّتاءِ . لَمْ تَكُنْ لَيْلَةَ بَدْرٍ وَلا لَيْلَةَ سَواءٍ : (لَيْلَةَ النِّصْفِ أَوِ الَّتِي تَلِيها) .

لَمْ يَفْطُنِ اللِّصُّ إِلَيَّ . كانَ يَتَعَجَّلُ الْعَوْدَةَ .

ظَلِلْتُ أَتْبَعُهُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى بَيْتِهِ .

حانَتْ مِنَ اللِّصِّ الْتِفاتَةٌ قَبْلَ الدُّخُولِ .

ظَهَرَ عَلَى وَجْهِهِ الْغَيْظُ ، حِينَ رَآنِي . نَظَرَ إِلَيَّ شَزْرًا .

سَأَلَنِي مُتَحَدِّيًا : « ماذا جاءَ بِكَ إِلَى هُنا ؟ »

* * *



تَجاهَلْتُ غَضَبَهُ وَتَحَدِّيَهُ .

قلْتُ لَهُ مُداعِبًا :

« جِئْتُ لِأَقُومَ بِواجِبِ الشُّكْرِ ! »

سَأَلَنِي مُتَعَجِّبًا :

« ماذا تَعْنِي ؟ لَسْتُ أَفهَمُ ما تَقولُ ! »

قُلْتُ لَهُ مُتَغابِيًا :

« مُنْذُ أَيَّامٍ ، عَزَمْتُ عَلَى تَرْكِ مَسْكَنِى .

كاشَفْتُ بَعْضَ أَصْحابِى بِما انْتَوَيْتُ .

سَأَلْتُهُ أَنْ يَبْحَثَ لِى عَنْ مَسْكَنٍ آخَرَ

تَحَقَّقَ رَجائِى فِى هٰذِهِ اللَّيْلَةِ .

اِمْتَلَأَتْ نَفْسِى فَرَحًا ، حِينَ رَأَيْتُكَ تَحْضُرُ إِلَى دارِى ، وَتَنْقُلُ ما فِيها ؟

أَدْرَكْتُ أَنَّ أُمْنِيَّتِى تَحَقَّقَتْ عَلَى يَدَيْكَ !

لَمْ تَشَأْ أَنْ تُصْحِيَنِى مِنْ نَوْمِىَ الْعَمِيقِ .

أَبَى عَلَيْكَ تَلَطُّفُكَ أَنْ تُقْلِقَنِى .

لَمْ يُساوِرْنِى شَكٌّ فِى أَنَّكَ سَتَعُودُ إِلَى بَيْتِى فِى الصَّباحِ لِتَدُلَّنِى عَلَى الْمَسْكَنِ الْجَدِيدِ !

رَأَيْتُ أَنْ أُرِيحَكَ مِنْ عَناءِ الْحُضُورِ مَرَّةً أُخْرَى .

قُلْتُ فِى نَفْسِى : خَيْرُ الْبِرِّ عاجِلُهُ

لَمْ أُضِعِ الْوَقْتَ عَبَثًا . اِقْتَفَيْتُ خُطُواتِكَ ، لِأَعْرِفَ مَكانَ الْمَسْكَنِ الَّذِى اخْتَرْتَهُ لِى . »

* * *



وَجَمَ اللِّصُّ . لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يَقُولُ ؟!

بادَرْتُهُ قائِلًا : « أَعْجَبَنِي - واللهِ - مَوْقِعُ الدّارِ ؛ فَلا أَقَلَّ

مِنْ شُكْرِكَ عَلَى حُسْنِ الِاخْتِيارِ ! »

أَعْجَبَ اللِّصُّ بِحِيلَتِي ، وَسُرَّ مِنْ إِجابَتِي .

لَمْ يَزِدِ اللِّصُّ عَلَى الِابْتِسامِ

أَعادَ إِلَيَّ ما سَرَقَهُ مِنْ بَيْتِي ، دُونَ أَنْ يُفَكِّرَ فِي أَذِيَّتِي !!

٣ – فِى الْخِزانَةِ

كانَتْ لَيْلَةً حالِكَةَ السَّوادِ :

شَعَرْتُ بِحَرَكَةٍ غَرِيبَةٍ فِى بَيْتِى .

عَرَفْتُ أَنَّ لِصًّا جَدِيدًا يُحاوِلُ سَرِقَتِى .

اِسْتَوْلَى عَلَىَّ الْخَوْفُ .

خَشِيتُ أَنْ يَنالَنِى مِنْهُ سُوءٌ .

عَمَدْتُ إِلَى قِطْعَةٍ مِنْ حَصِيرٍ قَدِيمٍ ، مُسْنَدَةٍ إِلَى حائِطِ الدَّارِ .

تَلَفَّفْتُ فِيها .

كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ خالِيَةٌ مِمَّا يُسْرَقُ ، والْحَمْدُ لِلّٰهِ

* * *

عَبَثًا طالَ بَحْثُ اللِّصِّ .

لَمْ يَجِدْ فِى الدَّارِ شَيْئًا يَسْرِقُهُ .

لَمْ يَظْفَرْ مِنْ بَحْثِهِ بِطائِلٍ .

عَزَمَ اللِّصُّ عَلَى الْخُرُوجِ .

حانَتْ مِنْهُ الْتِفاتَةٌ .

أَحَسَّ حَرَكَةً خَفِيفَةً .

تَنَبَّهَ إِلَى الْحَصِيرِ الَّذِى لَفَفْتُ نَفْسِى فِيهِ .

فَتَحَ الْحَصِيرَ الْمَطْوِىَّ .

رَآنِى مُخْتَبِئًا فِيهِ .

دَهِشَ اللِّصُّ مِمَّا رَأَى . سَأَلَنِى مُتَعَجِّبًا :

« ماذا دَفَعَكَ إِلَى الِاخْتِبَاءِ ؟ ! »

لَجَأْتُ إِلَى مُدَاعَبَةِ اللِّصِّ .

قُلْتُ لَهُ عَلَى الْفَوْرِ :

« لا تُؤَاخِذْنِى - أَيُّهَا الزَّائِرُ الْكَرِيمُ - إِذَا دَفَعَنِى الْخَجَلُ وَالْحَيَاءُ ، إِلَى التَّوَارِى وَالِانْزِوَاءِ . »

قَالَ : « أَفْصِحْ عَمَّا تُرِيدُ ، فَمَا أَفْهَمُ مَاذَا تَعْنِى ! »

قُلْتُ : « عَلِمْتُ أَنَّكَ لَنْ تَجِدَ فِى دَارِى شَيْئًا يُسْرَقُ

شَعَرْتُ لِذٰلِكَ بِالْحَرَجِ .

لَمْ أَدْرِ كَيْفَ أَلْقَاكَ ، وَلا بِأَىِّ وَجْهٍ أَرَاكَ ؟ !

تَلَفَّفْتُ فِى الْحَصِيرِ ، حَتَّى لا أُوَاجِهَ هٰذَا الْمَصِيرَ . »

ابْتَسَمَ اللِّصُّ لِدُعَابَتِى وَابْتَهَجَ ، ثُمَّ وَدَّعَنِى وَخَرَجَ .

٤ – جُهْدٌ ضائِعٌ

فِي لَيْلَةِ الْعِيدِ :

شَعَرْتُ بِلِصٍّ يَتَسَلَّلُ إِلَى دارِى .

فِي هٰذِهِ الْمَرَّةِ : فاجَأَتْنِى نَوْبَةٌ مِنْ بَراعَةٍ وَذَكاءٍ .

لا أَدْرِى كَيْفَ كانَ ذٰلِكَ . لٰكِنَّهُ حَصَلَ !

لَعَلَّ مَرَدَّ ذٰلِكَ أَنَّنِى أَلِفْتُ لِقاءَ اللُّصُوصِ ، وَمَرَنْتُ عَلَى مُلاطَفَتِهِمْ ، والنَّجاةِ مِنْ شُرُورِهِمْ ، بِما أَبْتَكِرُهُ فِى هٰذِهِ الْمَواقِفِ الْحاسِمَةِ مِنْ فُنُونِ الدُّعابَةِ الْباسِمَةِ !

كانَتْ حِيلَةً طَرِيفَةً لا عَهْدَ لِى بِمِثْلِها !

حَلا لِى أَنْ أَتَهَكَّمَ بِاللِّصِّ ، وَأُبَصِّرَهُ بِفَقْرِى ، دُونَ أَنْ أُعَرِّضَ نَفْسِى لِغَضَبِهِ وانْتِقامِهِ .

بَدَأْتُ أُمَثِّلُ دَوْرَ الْحالِمِ الْهاذِى . تَناوَمْتُ (تَظاهَرْتُ بِالنَّوْمِ) .

أَوْهَمْتُ اللِّصَّ أَنَّ ما يَسْمَعُهُ مِنِّى ، لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَضْغاثَ أَحْلامٍ (رُؤًى مُخْتَلِطَةً) .

تَظاهَرْتُ أَنَّنِى أَرَى - فِى مَنامِى - لِصًّا يَقْتَحِمُ بَيْتِى فِى ظَلامِ اللَّيْلِ ، ثُمَّ يُطِيلُ الْبَحْثَ عَنْ شَىْءٍ يَسْرِقُهُ ؛ فَلا يَعُودُ - مِنْ بَحْثِهِ - بِطائِلٍ .

تمادَيْتُ فِى تمْثِيلِ دَوْرِ الحالِمِ الْهاذِى .

رُحْتُ أَرْثِى لِلسَّارِقِ مُتَأَلِّمًا لِما سيَنْتَهِى إِلَيْهِ سَعْيُهُ مِنْ خَيْبَةٍ وَإِخْفاقٍ ، مُؤَكِّدًا لَهُ أَنَّنِى حاوَلْتُ مِثْلَ مُحاوَلَتِهِ فِى ضَوْءِ النَّهارِ ، فَلَمْ أَسْتَطِعِ الْعُثُورَ عَلَى شَىْءٍ فِى بَيْتِى .

قُلْتُ : « ذٰلِكَ ما حَدَثَ لِى - وَأَنا صاحِبُ الدَّارِ - فِى رائِعَةِ النَّهارِ . وَصاحِبُ الْبَيْتِ - كَما يَقُولُونَ - أَدْرَى بِما فِيهِ ، وَأَعْرَفُ بِما يَحْوِيهِ . فَكَيْفَ يَصْنَعُ الغَرِيبُ فِى ظَلامِ اللَّيْلِ ! »

وَقَفَ اللِّصُّ يُسَرِّى عَنْ نَفْسِهِ بِما يَسْمَعُ مِنْ هَذيانٍ ، لَمْ يَسْمَعْ مِثْلَهُ مِنْ إِنْسانٍ ! لا تَسَلْ عَنْ دَهْشَةِ اللِّصِّ مِمَّا سَمِعَ مِنْ فُنُونِ هٰذا الْهُراءِ الْمُخْتَلِطِ !

أَنْصَتَ اللِّصُّ أَحْسَنَ إِنْصاتٍ لِما حَشَوْتُ بِهِ حُلْمِى ، مِنْ صَخَبٍ وَضَوْضاءٍ ، وَحِكْمَةٍ وَغَباءٍ ، وَصُراخٍ وَعُواءٍ ، وَبَلَهٍ وَذَكاءٍ .

تَعاظَمَتْهُ الدَّهْشَةُ ، حِينَ خَتَمْتُ الْحُلْمَ الطَّوِيلَ بِالتَّوَدُّدِ إِلَى اللِّصِّ الَّذِى أُخاطِبُهُ فِى مَنامِى ، وَأُناجِيهِ فِى أَحْلامِى ، مُعْتَذِرًا لَهُ مِمَّا لاقاهُ ، مِنْ خَيْبَةِ مَسْعاهُ .

كُنْتُ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ إِعْجابِ اللِّصِّ بِالْحُلْمِ ، وَما حَواهُ مِنْ فُنُونِ الْمُناجاةِ .

إِلَيْكَ أَيُّها الْقارِئُ ما قالَهُ «جُحا» فِي خِتامِ رُؤْياهُ :

«جُهْدٌ خائِبٌ ما أَضْيَعَهْ : ما أَضْيَعَهْ !

أَمَلٌ خادِعٌ ضَلَّلَهُ وَأَطْمَعَهْ : ضَلَّلَهُ وَأَطْمَعَهْ !

قَلْبِي مَعَهْ : قَلْبِي مَعَهْ !

* * *

يا وَيْحَهْ . يا وَيْحَهْ !

يَبْحَثُ فِي الظَّلامْ : فِي الظَّلامْ !

والنَّـاسُ نِيـامْ : نِيامْ . نِيامْ !

يَرُومُ ما لا يُرامْ : مالا يُرامْ !

قَلْبِي مَعَـــهْ : قَلْبِي مَعَهْ !

* * *

يا وَيْحَهْ : يا وَيْحَهْ !

أَطْمَعَهُ كاذِبُ الْأَحْلامْ : كاذِبُ الْأَحْلامْ !

أَضَلَّهُ خادِعُ الْأَوْهامْ : خادِعُ الْأَوْهامْ !

عَمَّ يَبْحَثُ فِي الظَّلامْ : فِي الظَّلامْ !

والنَّاسُ نِيامْ : نِيامْ . نِيامْ !

أَمانِيٌّ وَأَحْلامْ : أَحْلامٌ . أَحْلامْ .

أَوْهامٌ جِسامْ : جِسامٌ . جِسامْ .

قَلْبِي مَعَهْ : قَلْبِي مَعَهْ !

* * *

آهٍ لَهُ ، وَواهٍ مِنْهُ ، وَواهٍ عَلَيْهِ !

يا وَيْحَه لَوْ عَلِمَ الْحَقّْ : الْحَقَّ . الْحَقّْ .

يا بُؤْسَهُ لَوْ تَبَيَّنَ الصِّدْقْ : الصِّدْقَ الصِّدْقْ .

إِذَنْ تَفَطَّرَ قَلْبُهُ وانْشَقّْ : انْشَقَّ . انْشَقّْ

وَتَمَيَّزَ مِنَ الْحَسْرَةِ وَطَقّْ : طَقَّ . طَقّْ .

قَلْبِي مَعَهْ : قَلْبِي مَعَهْ !

* * *

مِسْكِينْ : مِسْكِينْ !

ماذا فِي بَيْتِ « جُحا » ، غَيْرُ الْعَدَمْ : الْعَدَمِ الْعَدَمْ !

لَيْسَ لِلسَّاكِنِ غَيْرُ التَّفَجُّعِ والأَلَمْ : الأَلَمِ . الأَلَمْ !

ماذا يَلْقَى سارِقُ « جُحا » غَيْرَ التَّوَجُّعِ والنَّدَمْ : النَّدَم . النَّدَمْ !

قَلْبِي مَعَهْ : قَلْبِي مَعَهْ !

* * *

وا أَسَفاهْ : وا أَسَفاهْ !

والَهْفَتا لِلسَّارِقِ . واحَسْرَتا لِلضَّيْفْ : لِلضَّيْفِ . لِلضَّيْفْ !

الأَرْضُ فِراشُ الزَّائِرِ والضَّيْفِ ، وَلِحافُهُما السَّقْفْ : لِحافُهُما السَّقْفْ !

فِي رَبِيعٍ وَخَرِيفٍ ، فِي شِتاءٍ وَصَيْفْ : شِتاءٍ وَصَيْفْ !

قَلْبِي مَعَهْ : قَلْبِي مَعَهْ !

* * *

بَيتُ «جُحا» ؟!

يأيُّها السَّائِلُ عَنْ بَيتِ «جحا» :

فِى بَيتِ «جُحا» فنُونٌ مِنَ الْعَجَبْ : الْعَجَبِ . الْعَجَبْ !

تَسْأَلُنِى عمَّا يَلْقَى «جُحا» !

يأيُّها السَّائِلُ عمَّا يَلْقَى «جحا» :

شَدَّ ما يُكابِدُ مِنْ أَلْوانِ الشَّقاءِ والتَّعَبْ : الشَّقاءِ والتَّعَبْ !

لَوْلا الصَّبْرُ !

لَوْلا الصَّبْرُ لَهَلَكَ «جُحا» مِمَّا يُكابِدُ فِى بَيْتِهْ : فِى بَيْتِهِ . فِى بَيْتِهْ !

مِنْ بَرْدٍ وَحَرٍّ ، وَعَطَشٍ وَسَغَبْ : عَطَشٍ وَسَغَبْ !

قَلْبِى مَعَهْ : قَلْبِى مَعَهْ .

* * *

طَعامُ «جُحا» !

آهِ لَوْ يَدْرِى اللِّصُّ السَّارِقُ : ماذا يَطْعَمُ «جُحا» ؟!

لَيْتَهُ يَدْرِى أَنَّ فَطُورَهُ الرَّجاءْ : الرَّجاءْ . الرَّجاءْ !

وَأَنَّ غَداءَهُ الشَّقاءْ : الشَّقاءْ . الشَّقاءْ !

وَأَنَّ عَشاءَهُ الْهَواءْ : الْهَواءْ . الْهَواءْ !

قَلْبِى مَعَهْ : قَلْبِى مَعَهْ !»

* * *

ظَلِلْتُ أُتابِعُ هٰذا الْهَذَيانَ ، ساعَةً مِنَ الزَّمانِ

ثُمَّ تَوَقَّفْتُ ، واسْتَسْلَمْتُ لِلصَّمْتِ .

* * *

خَجِلَ اللِّصُّ مِمَّا سَمِعَ

عَرَفَ أَنَّهُ طَمِعَ فِي غَيْرِ مَطْمَعِ

وَلَّى وَلَمْ يَرْجِعْ !

* * *

أَلا لَيْتَ النّاسَ يَذْكُرُونَ حِكْمَةَ صَديقِي : « عَبْدِ اللهِ ابْنِ الْمُقَفَّعِ » ، وَيَنْتَفِعُونَ بِقَوْلِهِ :

« إِنَّ الْماءَ مَعَ لُيُونَتِهِ ، يَبْلُغُ ما لا تَبْلُغُ النّارُ مَعَ شِدَّتِها ! »

